14- إثبات صفة السمع والبصر والرؤية

[وقوله: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي رَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [المجادلة: 1]. وقوله: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمَّ وَيَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزحرف: 80]. وقوله: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمَّ وَيَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزحرف: 80]. { إلَّنِي مَعَكُمَا أُسِيِّعَ يَبْعُ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَى } [العلق: 11]. { الَّذِي يَرَكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلَبَكُ فِي السَّاحِدِينَ إِيَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الشعراء: 218]. { أَسْدِي يَرَكَ كِينَ تَقُومُ وَتَقَلَبَكُ فِي السَّاحِدِينَ إِيَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [المعراء: 218]. { وَقُلْ اَغْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } [التوّبة: 105]. النَّشرحَ * قولهّ: وقُولُه: { قَدْ سَثِمِعَ اللَّهُ قَوْلَ َالَّتِي ثُجَادِلُكَ فِي رَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ } . هذه الآياُت أوردها المؤلف -رحمه الله- لإثبات صفتي السمع والبصر وهاتان الصفتان من الصفات الذاتية، ثم هذه الآيات صريحة في إثبات السمع؛ لأنها جاَءت بصيغة الفعل، وجاءت بالمضارع، وجاءت بالاسم. فجاءت بالماّضي كقولُه تعالَى في سورة المّجادلة: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قُوْلَ الَّتِي ْتُجَادِلُكَّ فِي رَوَّجِهَا } الآية، وكذلكْ قوله تعالى في سورة آل عمران: { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرُ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ؛ لأن التعبير بسمِع في الماضي بدل على أمر قد حصل، فقد سمع الله قول المجادلة، وسمع الله قولُ الذين قالوا: إن اللهِ فَقير ونَحْن أغْنِياًء. وبالمضارعُ كقوله في آية المجادلة: ﴿ وَاللَّهُ يَشْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا } والمضارع يؤتي به للحال ولَّاستقبالُ، والمعني: أِنْ الِلهُ بسٍمع تحاوركما في الحال، أو يسمع تحاوركما في المستقبل، فهذا صريح في وقوعٍ السمع، ومثله أيضا -بلفظ المضارع- ٍقوله تعالي في سورة طه: { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأْرَى } فقد أثبتهٍ بلفِظ المضارع، وكذلك قوله في سورة الزخرف: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } . فإلتقدير: ٍ بَلى نسمع سٍرهم ونجواهم { وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْثُبُونَ } فعبر بالمضارع ليدل على وقوعه في المستقبل، وفي الحال، ومثله أيضا قوله تعالي في سَورة براءة: { وَقُلِ اغْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَهَلَكُمْ ﴾ [التَّوْبة: 105ً]. هذا في الرؤية في المسّتقبل، وبالإِسمْ كما في قوله تعالى، في آية المجادلة -في آخرها- { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } وفيَ بعض الآيات: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } وفي بعضها: { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } { وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } فإثبات ذلك بلفظ الاسم يدل على تحَّقق الصفة، أي: تحقق وصف الله بمقتضى ذلك الاسم؛ لأن الاسم له ثلاث دلالات، هي: الأولى: دلالة على الذات، وتسمى دلالة المطابقة. الثانية: دلالة على الصفة المشتقة، وتسمى دلالة تضمن. الثالثة: دلالة على بقية الصفات، وتسمى دلالة التزام. فاسم الله تعالى " السميع " يعني: ذو السمع الشامل، لا ينطبق إلا على الذات الربانية، فهو يدل على الذات - يعني: ذات الله-مطابقة؛ لأنه ٍاسم الله حقا. وبدل علي الصفة تضمنا، وهي صفة السمع، وهي: إثبات أنه يسمع؛ لأن الٍسميع مشتِق من السمع، وبدل عليه التعليل بما قبله، كقوله تعالى: { وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ الِلَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [المجادلة: 1]. وِكقوله تعالى: { وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ِفَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 227]. يعني: يسمع طلاقهم، وبدل علَى بقية الصفّات باللّالتزامُ؛ لأنه إذا كَانَ سُمِيعاً استلزم سمعه أنّ يكُون مدركاٍ لَما يُسمع، واستلزم أن يكون بصيراً، واستلزم أن يكون قادرا وقاهراً لخلّقه كلهم وهكذا. * الآية الأولى: في سورة المجادلة، وهي قوله تعالى: { قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي رَوْجِهَا وَتَسْتَكِي إِلَى اللّهِ بَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمَا إِنَّ اللّهَ سَمِيعُ بَصِيرٌ } . هذه الآية نزلتٍ في خولة بنت ثِعلبة جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تشتكي إليه زوجها؛ لأنه ظاهر منها، يغني: قال لها: أنت علي كظهر أمي، فأخذت تكلمه خفية، وتقول: أشكو إلى الله، وأشتكي إلى الله مما فعل، وتقول عن الصبية الصغار الذين عندهم: " إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعواً، فأنزل الله الإيات في أول سورة المجادلة، وجعل له كفارة... إلخ. فقوله: { تُجَادِلُكَ فِي رَوْجِهَا } يعني: في شأنٍ زوجها الذي ظاهر منها، وقال: أنت علي كظهر أمي، { وَتَشْتَكِي لَى اللَّهِ } فراقها لأولادها، لما قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم- { ما أَرَاكَ إَلَا قد حرمت عليه } أُخَرَجَه البيهقي فيَ السِّننَ (7ً/ 385)، وذَّكره السَّيوطَّيُ في الدّر َّ ألمنثور (6/ 268) وعزاه لابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في السنن، وقال البيهقي في السنن: هذا ميرسل لكن له شواهد. قلٍت: وفي سنده أيضا علي بن عاصم، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك. فهي تشكو أمرها إليه. والشاهد هو قوله تعالى: { وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } فأثبت لنفسه سمعا يدرك به المسِّموعات، وبصراً يدرك به المَّرئياتَ، وقد وْردِ أن عاَّئشةَ -رُضي الله عنها- قَالتٍ: " الحمد لله الذي وسَّع سمَّعه الأُصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسُول الله وأنا فَي ناحيةً منَ البيت، ما أسمِّع ما تقَول ۖ فأنزل الله -عزِّ وجلَّ- { وقدْ سَمِعَ الله ﴾ فدل ذلك أن الله يدَّرك بسمعه الأصوات على اختلافها * الآية الثَّانية: في سورة آل عمران، وِهي قولٍه تعالى: { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } [آل عمران: 181]. هذه الآية نزلت في اليهود، عندما نزل قولِه نعاَّلي: { َ مَنْ ذَا الَّذِي يُقُرْضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا قَيُضَاَّعِفَةُ لَهُ أَضْعَاقًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: 245]. قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله هذه الآية كما روي عن ابن عباس-َ رضيِ الله عنهما- ِلمحمد سمع الله قولهم هذا لما تكلموا به، لم يخف عليه منهم خافية وسيجازيهم على ذلك. * الآية الثالثة: في سورة الزِخرِفُ، وهَيِ قُوله تعالى: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاْهُمْ بَلَِى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرِف: 80]. هذه الآية نزلت في المشركين، يقولُ تعالَى عنهم: { أَمْ أَبْرَمُواً أَمّْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ } [الزخرَفَ: 79]. ثم قالَ ۚ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا َنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْثُبُونَ } أيا: بلَى نسمع سَرهم ونجواهم ولذلك وٍكلنا بهم رسٍلا- يعنَي: مَلَائكة- يكتبون حسناتهم وسيئاتهم، فلا يخفي عَلينا شيء مَن أمرهم وإن استخفوا وتستروا. ۗالآية الرابعة: فِي سورة طّه، وهي قُوله تعالَى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىِ } هذا خطاِب من ِالله لموسى وهارونِ لما أرِسلهما إلى فرعون، وأمرهما أن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشي، وثبتهما الله على ذلك، فُقالَ لهما: { لَا تَخَافَا إَنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه: 46]. فأثبت بأنه معهما بعلمه وحفظه ويسمع كلامهما لفرعون ويرى مكانهما ومكان فرعون، لا يحجبه عن ذلك شيءً، فهو يعلم السر ُ وَأُخْفَى، وهذا دليلَ عَلَى سعة علم الله تعالى، فإن سُمعه يتسعّ لجميع الْأَصوات، وقّد كان دعاءً عَائشة -رضي الله عنها- الحُمد لله الذي وسّع سمعه الأصوات، وقالت ذلك لما حكت قصة المجادلة، وهي خولة بنت ثعلبة فكونه -سِبحانه- وسع سمعه الأصوات، يعني: أنه يسمع القاصي والداني، ولا يخفى عليه شِيء من الأصوات، قويها وضعيفها، سرها وجهرها، في كل مكان، وفي كل زمانَ، وبأي لغة، فَدلَت هذه الآية عَلى إثباتٌ صفتيَ السَّمعِ الذيُّ يَدرك أَللهُ به ْجميّم الأصوات، والبصر الذي يدركَ الله به جميع المرئيَات فدل ذلك علَى اتصافه -جَل وعلّا- بهاتين الصفتين. * الآية الخامسة: في سورة العلق، وهي قوله تعالى: { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } [العلق: 14]. وهذه الآية وما بعدها فيها إثبات سفة الرؤية لله تعالى كما ورد في الآية إسابقة: { إِنَّنِي مَعَكُمًا أَسْمَعُ وَأَرَى } وقد نزلت هذه الآية في أبي جُهل -لعنه الله- عندماً منع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الصلاة بالبيت وبخه الله وتوعده، وقال: ألا يعلم هذا الشقي أن الله يرى جميع الأشياء، ولا يخفي عليه خٍاْفية من أمره، حتى يمنع نبيه من عبادته والصلاة ُفي البيتَ، فأثبت الله في هذه الآية صفة الروّية لجميع الأشياء. * الآيّة السادسة: من سُورة الشعراء، وهي قوله: { الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الشعراء: 218- 220]. يخاطٍك الله نبيه محمدا -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والمعنى أنه يراك في ظلمة الليل حين تقوم للصلاة، ولو كُنت فَي جوف بيتك، لا يخفي عليه شيء من أمرك { وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } يعني: ويرى تقلبك وتنقلك بين الساجدين- يعني: المصلين- من حال إلى حال، فلو كنت في مسجد مثلا، والمسجد مليء بالمصلين، فالله تعالى يراك ويعلم خافيَتك، ويعلم ما في ضميرك: {رَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ } بعني: أنّه يسّمع الكلام والقراءة والذكر ونُحو ذلك سرا كانت أو جهرا، وهو عليم بذات الصدور، وبما يكنه ويخفيه صدركٍ. والشِإْهد قولهُ: { اللّذِّي يَرَاكَ } هو فأثبت تعالى لنفسه البصر الذي يرى به جميع الأشپاء. * الآية السابعة: في سورة التوبة، وهي قوله تعالى: { وَقُل اغْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } [التوبة: 105]. حث الله عباده على العمل الصالح، وأنهم إذا عملوا فإن الله يراهم، ولا يخفى عليه خافية -من أمرهّم- فيجازيهم على ذلك أحسن الجزاء، فرؤية الله عامة في كل ٍزمان وقوله: { ورسوله } يعني: عندما يكشف الله له أو يعلمه بذلك، قوله: { والمؤمنون } يعني: عندما يرونهم يعلمون أعمالهم الظاهرة. الشاهد قوله: { فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ } دُلَّ ذَلكَ علَى إثبات الرؤية لله، وأنه سبحانَه يرى ببصره جمَيع الأشَياء، ولا تواري منّه سماء سماء وأرض أرضا. فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى سمعا حقيقيا، يدرك به جميع المسموعات، وبصرا حقيقيا يدرك به جميع المِرئيات، من غير تحريفِ ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل. فإذا عِرفت ثبوت هاتين الصفتين قد تقول: ما فائدة اعتقادهما؟ أو: ما الذي يستفيده الشخص إذا اعتقد أن الله سميع بصير، وأن الله يسمع ويرى؟ والجواب عن ذلك أن يقال: إن فائدة هذا الاعتقاد لا بد أنّ تكون محسوسة. فإذا اعتقد العبد اعتقادا جازما بأن الله يسمع جميع الأصوات، فإن ذلك يوجب له أن يكون حذرا من أن يسمع الله منه كلاما لا يرضيه، كأن يتكلم كلاما محرما؟ من كذب، أو نميمة، أو غيبة، أو نحو ذلك، فيكون دائما خائفا وجلا لا يتكلم إلا بالخير، فإن الله تعالى هو الذي خلقه، وهو الذي رباه بنعمه، وهو مالكه، وقد نهاه عن الكذب، ونِهاه عن النميمة، ونهاه عن الغيبة، ونهاه عن قول الزِور وشهادة الزور، ونهاه عن السٍخرية بإخوانه المؤمنين، إلى غير ذلك مما نٍهاه الله عنه، فإنه إذا علم علم اليقين أن إلله يسمعه، فإنه سيحاسب نفسه، ويقول: كيف أقول ذلك والله يسمعني، كيف أقدم على هذا الكذب، والله يسمعني، كيف أفسد بين الناس ُواللّه يسمعني، كيف أُذكر أخي المسلم بما يكره في غيبته واللّه يسّمعني، كيفّ أقول الّزور وأشهد ُمع فلان على فلان كاذبا والله يسّمعني، كيفُ أسخر بأخي المسلم والله يسمع ما أقول، فيكون اعتقاده ذلك رادعا وزاجرا له عن الوقوع فيما نهى الله عنه. وهكذا أيضا إذا أيقن، وإذا علم علم اليقين، واعتقد اعتقادا چازمٍا بأن الله يراه من كل حال وعلي كل حال، وفي كل زمإن وفي كل مكان، فإن اعتقاده وإيقانه وإيمانه بذلك يردعه ويمنعه ويكفه عن أن يقدم على ما لا يحل له، أو يتأخر عن الواجب. وقد روى أن أحد العلماء أوصَّى أحدَ أصحاًبه، فقال له: إياكُ أو احذر أنَّ يراك آلله حيث نهاكَ، أو يفّقدك حيَّث أمركَ، ومعنى قوله: يراك حيث نهاكَ، يعنيً: يراك على معصية قد نهاك عنِها في مكان فيه صخب ولغو ومضيعة لحدود الله، يراك في مكان تنتهك فيه حِرمات الله، ويفترى فيه على اللهِ الكذب، يراك في مكان يسخر فيه بآيات الله ويستهزأ بها، يراكِ في مكان يعصى فِيه الله علنا جهارا، ويستخفى فيه بمعصية الله، أو يجاهر بها، ويستهان بِاقترافها، أو يراكِ وأنت متلبس بمعصية. ومعنى قوله: أو يفقدك جِيث أمركَ، يعني: اجِذر أن تتخلف عن أواَمر الله، وعن الأماكن التي يطاعَ فيها الله وتفعَل فيها أوامره، فاحَذَر أن يَفقدك الله فِي المساجد مثلا في أُوقات الصلاة، أو في حلّقات العّلم أو حلقات الذكر، أو يُفقدك مع الذاكرين اللّه كثيرا، ومّع الّذين يدعّون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، أو يفقدك مع حجاج بيته الحرام، أو يفقدٍك مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ونحو ذلك من أبواب الخير التي أمِر الله بها عباده وجعلها واجبة عليهم. ثم إن هذا يسمى عين المراقبة، إذا علمت أن الله يراك، واستجضرت ذلك عنِد كل عمل، كانت هذه عين المراقبة. وهناك مرتبة أرفع منها، وهي عين المشاهدة، وهما مذكورتان في قوله -صلى الله عليه وسلم- { الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك } أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب برقم (8) في الإيماَّنَ، باب: "بياَّن الإيمان والإسلام والإحسان... ". . قوله: { أن تعبد الله كأنك تُراه } هذه عيّن المشاهّدة، وقوله: { فإن لم تَكن تراه فإنه يرّاك } هذه عَين المراقبة. فهذه هي ثمرة اعتقاد اتصاف الله تعالى بالسمع الذي يدرك به جميع الأصوات، والبصر الذي يدرك به جميع المرئيات.